الفصل الثالث

العلم ومعاييره فى الاسلام

العلم فى القــرآن

نشــاط رقم « ٦ »

لقــد وردت كلمة العلم بمشتقاتها ٨٥٥ مرة فى آيات القرآن الكريم ومن بين هــذه الايات ما يلى :

★ « .. ولا تعجل بالقـــرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ،وقل رب زدنى علما » .. (طه : ١١٤) .

★ « ألم تر أن اللــه انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جــدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كــذلك ، انما يخشى اللــه من عبــاده العلماء .. (فاطر : ٢٧ ، ٢٨) .

★ « قل ان هــدى اللــه هو الهــدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعــد الذى جاءك من العلم ما لك من اللــه من ولى ولا نصير » .

(البقرة : ١٢٠)

هل المقصود بالعلم فى القــرآن علم الدين وحــده ؟ أم المقصود به العلم الطبيعى دون سواه ؟ ..

انه من قبيل المغالطة أن نقصر كلمة : « علم »(١) التى وردت فى

(١) لاحظ أن كلمة « العلم » كما وردت فى القــرآن قــد ترادف كلمة معرفة Knowledge والمعرفة أشمل من العلم

القـــرآن على الدين وحـــده ، أو أن نقصر كلمة « العلماء » على علماء الدين وحـــدهم كما أنه من المغالطة ايضا قصر كلمة العلم فى القرآن على « العلم الطبيعى » دون ســـواه (عبـــد الحافظ حلمى محمد ، ١٩٨٢) فالعلم فى القرآن يشمل : الدين والعلم الطبيعى ، وغير ذلك من المعارف .

وقـــد أشـار عبـــد المنعم خلاف (١٩٧٦ ، ص ٨٧ — ٩٠) الى أن العلم فى القـــــرآن يشمل ثلاثة انواع :

الأول : العلم المكتسب وهو من اعظم المميزات التى وهبها الخالق للانسان وهو « الحكم العقلى » كما يسميه علماء العقائد المسلمون وهو مبنى على مسلمات البداهة ، والفطرة التى فطر الله النـــاس عليهـــا ومبنى كـــذلك على قـــدرة العقل على اثبات الحقـــائق بالبرهان(١) ، كقوانين الرياضيات وكاليقين العقلى الجازم . بحتمية وجود الخـــالق ، الى آخر الحقائق الدينية والكونية العقلية كوحدانية الخالق فى خلقـــه ، وابديته فى ذاته ، وحتميـــة احاطة علمه وقـــدرته بكل شىء ، وكعـــدله ورحمته وقيومته وعـــدم تناهى كمالاته .

وهـــذا النوع من العلم هو المراد فى قوله تعالى : « شهد اللـــه انـــه لا اله الا هو ، والملائـــكة وأولـــو العـــلم ، قائمـــا بالقســـــط . لا اله الا هو العزيز الحكيم » — (آل عمـــران : ١٨) — وفى قوله : « والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عنـــد ربنا » — (آل عمران : ٧) .. أى قادم من عنـــد ربنا وقـــد ثبتت علميته التى تلزم العقل بالايمان .

وفى قوله : قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انمـــا يتذكر أولو الالباب — (الزمر : ٩) .

وهـــذا النوع من العلم هو اعظم مقامات الانســـان ، لانه يجعله شـاهدا مع الله الكبير المتعالى ، ومع ملأه الأعلى . على اعظم حقيقـــة عقلية ودينية وكونية وهى وحدانيته تعالى ، وقيومته على الوجـــود كله بالقسط ، وعلى عزته وقوته وحكمته .

---

(١) يستند هـــذا النوع من العلم على ما يسمى بالحدس العقلى . وهو ما يدركه العقل ادراكا مباشرا دون حاجة الى أية واسطة أو تعليل ، مثل ادراك ان الكل أكبر من الجزء أو ان النقيضين لا يجتمعان أو ادراك ان لكل معلول علة (انظر محمـــد ابو حمـــدان ، ١٩٧٨) .

والنوع الثانى من العلم : هو المبنى على التجارب الحسية فى الطبيعة ومشاهدها وعلى النظر والتأمل فى كل ما خلق ، وعلى استخلاص قوانين التكوين والهدم والتسخير لقوى الطبيعة(١) . وهو المستفاد من قول القرآن : (انما يخشى الله من عباده العلماء) .

بعد سرد الكائنات والمشاهد الكونية التى وردت فى صدر الآية التى ختمت بـ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم. ان فى ذلك لآيات للعالمين — الروم : ٢٢ » وقوله : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون — الأنعام ٩٥ .. ولا يخفى أن النوع الأول من المفاهيم القرآنية للعلم ، وهو الحكم العقلى، هو فى الواقع وراء كل علم مستنبط من المشاهدة والتجارب الحسية ، لانه هو الذى يستخدمه الفكر لادراك الحقائق الحسية ، والنسب والعلاقات بين الاشياء ، والتمييز بينها وتصنيفها ، واستخراج قوانينها واسرارها ، لان الحقائق والقوانين الطبيعية لا تنطق بذاتها ، ولا تخرج الى عالم الالفاظ وحدها ، وانما يستخرجها الفكر الانسانى ويصحبها ، ليبرزها ويظهرها فى عالم الصيغ والألفاظ ، ويقننها ويسجلها فى سجل العلوم والحقائق الثابتة فى ميراث الانسانية كلها .

والنوع الثالث من العلم فى المفاهيم القرآنية هو العلم عن طريق الوحى الالهى للانبياء . ولا يأتى عن طريق معاناة الحواس او العقل فى ادراكهما الحقائق الحسية او العقلية ، كما هو الشأن فى النوعين السابقين من أنواع العلم ، وانما يأتى ، كما قلنا ، عن طريق الوحى الالهى الى الروح الانسانى الممثل فى الانبياء والمرسلين .

فهو فيض من علم الله سبحانه ، ونوره الكاشف ، ينزله على قلب النبى بحقائق بعضها من الغيب المحجب عن القول ، كأخبار البعث والقيامة والحشر والحساب والجنة والنار والملأ الاعلى ، وبعضها من عالم التجارب والوقائع والشرائع والنظم فى هذه الحياة الدنيا كأخبار الامم السالفة ، وكأنباء المستقبل وكالاحكام الصحيحة فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد والشريعة ، وكل اولئك ينزل بوحى الله للرسول ليعلمه ويبلغه الى الناس حقائق مضيئة هادية تكسب المؤمنين علما ويقينا لم يبذل عقل الرسول ولا عقول المؤمنين جهدا فى معاناة الوصول اليه .

---

(١) يطلق على هذا النوع من العلم : « العلم الطبيعى » وهو ما حدثناك عنه سلفا .

وفى هـــذا النوع من العلم يقول القـــرآن : « ولا تعجل بالقـــرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدنى علما » .

ويقول : « فوجـــدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمنـــاه من لدنا علما » وهذا علم انكشاف أحداث المستقبل قبل وقوعها ، وعلـــم تفسير وقائع الخير والشر ، وسيرها كما فى علم اللـــه وحكمته . ويقول تعالى : « تلك من أنبـــاء الغيب نوحيها اليك ، ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هـــذا » . ويقول : « غلبت الروم فى ادنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون » .

ومن هـــذا النوع الثالث علم تأويل الرؤى المنامية التى تراها بعض النفوس فتفسرها ، وتعبرها عقول ذات شفافية خاصة ، وفطنة للرموز والاشارات .

وفى هذا يقول القـــرآن فى قصـــة يوسف عليه السلام : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث » ـــ (يوسف : ٦) .

وبعـــــد :

ان العلم ـــ بالمعنى الاسلامى ـــ يخالف مفهوم العلم بالمعنى الأوربى Science فمفهوم العلم بالمعنى الاسلامى أوسع دائرة ، انه المعرفة بكل نافع من الامور ، انه المعرفة بالكون وبما وراء الكون ، بالوجود المادى وبالوجود الروحى ، انه المعرفة بالافاق وبالانفس ، وفى نطاق ذلك يدخل العلم الطبيعى . (عبـــد الحليم محمود ، ١٩٧٩ ، ص ٤٧) .

معايير العلم فى الاسلام ؟

وضع الاسلام مجموعة من المعايير الخاصة بالعلم (المعـــرفة) ، بما فى ذلك « العلم الطبيعى » (عمر الشيبانى ، ١٩٧٦) نذكر منها ما يلى :

١ ـــ الموضوعية :

ويقصـــد بها هنا عـــدم اتباع الهوى ، وعـــدم التمســـك بالافكار السابقة بعـــد أن يتبين للشخص فسادها ، التزام النزاهة واســـتبعاد الاعتبارات الشخصية ، واستبعاد التعصب من أى نوع ، وتوخى الحق . الى غير ذلك من خصائص وشروط البحث النزيه .

وقد ذكرنا الاسلام كثيرا بدور الاهواء فى تضليل الانسان ، يقول جل شأنه : « ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » — (الكهف — ٦٨) .

أليست الموضوعية التى أقرها الاسلام هى نفسها احدى قيم العلم الحديث ؟ (انظر أيضا حمدى أبو الفتوح عطيفة ، ١٩٨٢) .

٢ — التواضع :

ويقصد به تجنب الغرور ، والثقة الزائدة بالذات وادعاء العلم ، وعدم التطاول على ما اختص الله بعلمه ، (وفوق كل ذى علم عليم) ، فالاسلام يعلم الانسان أنه مهما زاد علمه ، واتسعت معارفه سيظل محدود العلم والمعرفة ، « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » — الاسراء : ٨٥ — ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل) — (حديث شريف) .

أليس التواضع العلمى كما أقره الاسلام هو نفسه التواضع العلمى الذى يقره العلم الحديث ، ويتصف به العلماء الحقيقيون لا المغرورون منهم ؟ ..

تأمل معنا قول اينشتين — عالم الطبيعة ذائع الصيت :

« ان العقل البشرى مهما بلغ من عظم التدريب ، وسمو التفكير ، عاجز عن الاحاطة بالكون ، فنحن أشبه الاشياء بطفل داخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها حتى السقف ، وهى مكتوبة بلغات كثيرة ، فالطفل يعلم أنه لابد أن يكون هناك شخص قد كتب تلك الكتب ، ولكنه لا يعرف من كتبها ، ولا كيف كانت كتابته لها ، وهو لا يفهم اللغات التى كتبت بها ، ثم ان الطفل يلاحظ أن هناك طريقة معينة فى ترتيب الكتب ، ونظاما خفيا لا يدركه ولكنه يعلم بوجوده ، وهذا يشبه موقف العقل الانسانى من الله ، مهما بلغ ذلك العقل من السمو والعظمة والتثقيف العالى » (نقلا عن أبو الوفا التفتازانى ، ١٩٨٢ ، ص ٢١٠) .

٣ ــ النفعيــة :

العلم الذى يدعو اليه القــرآن هو العلم النافع فى مجال الكون أو ما وراء الكون ، فى مجال العقائد ، وفى مجال الاخلاق . فالاسلام يؤكــد على ضرورة أن يكون العلم نافعا للفرد وللمجتمع (عبــد الحليم محمود ؛ ١٩٧٩ ، أبو الوفا التفتازانى ، ١٩٨١) .

ولهــذا جاء فى دعاء لرسول اللــه ــ صلى اللــه عليه وسلم : « اللهم انى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع » وفى حديث آخــر يقول الرسول ــ صلى اللــه عليه وسلم : « مثل علم لا ينتفع به كمثل كنز لا ينفق منــه فى سبيل اللــه » .

ان موقف الاسلام من نفعية العلم ليتجاوز نظرة العلم الحــديث « العلم الطبيعى » والتى يقف فيها العلم موقفا محايدا من الخير والشر .

أليس العلم الحــديث ــ كما سبق أن أوضحنا ــ يخــدم الخــير والشر على الســواء ؟ .

ألم يخلق العلم الحــديث بموقفــه هــذا حالة من القلق والذعر الانسانى والتى دفعت بالبعض الى القول « بهجر العلم »(١) .

٤ ــ الاستمرارية :

لم يقف الاسلام حائلا دون استمرارية العلم بل شجع الانســان على مواصلة البحث والاستزادة من العلم . وفى الخطاب القــرآنى الصريح : « وقل رب زدنى علما » ــ (طه : ١١٤) .

فمن الواضح ــ كما قال اهل البيان ــ ان التنوين فى لفظة « علما » يوحى بالشمول ــ حتى لكان الانسان ــ كل الانسان فى كل زمان ومكان . مطالب ــ أو بالاحرى يطالب نفسه ــ بالاستزادة من كل علم يســبر به أغوار الوجود ، بلا حــدود ولا قيود ــ (صبحى الصالح ، ١٩٧٦) .

---

(١) راجع ما سبق أن ذكرناه فى ذلك عنــد حــديثنا عن (اغتراب العلم) .

اليس فى نظرة الاسلام لاستمرارية العلم ما يتفق مع مقولة العلم الحديث بأن العلم نشاط لا نهاية له Open-ended Activity

وبعد :

لقد قدمنا لك صورة عن العلم الطبيعى وحدوده ، وحالة الاغتراب التى يعيشها . ثم تناولنا بالحديث العلم فى الاسلام ومعاييره . اظنك الان فى شوق لمعرفة شىء عن الدين ..

obeikandl.com